

دليل النجوم

حمادة حامد محمود نور الدين

في الصحراء الغربية، بعيداً عن آخر واحةٍ يعرفها الخرائطيون، كان يعيش رجلٌ يُدعى عبد الصبور، يعمل دليلاً للقوافل منذ الصبا. لم يكن يحمل بوصلة ولا خريطة. كان يمشي في مقدّمة الجمال، وعيناه إلى السماء، ويقول للتجّار الذين يتبعونه: «لا تنظروا إلى الأرض، فالرمل ينسى طريقه كلّ ليلة. انظروا إلى فوق، حيث لا ينسى أحد.»

وكان للصحراء عليه حقٌّ قديم: ثلاثون سنةً من الليالي، لم يضلّ فيها قافلة، ولم يفقد فيها جملاً. حتى جاءت الليلة التي نظر فيها إلى السماء فلم يرَ النجوم.

كانت غيمةٌ سوداء كثيفة قد غطّت الأفق كلّه، وهبّت ريحٌ تحمل رملاً ناعماً كالدخان. توقّفت القافلة، وارتجف الجمّالون. كانوا اثني عشر رجلاً وثلاثين جملاً، ومعهم حمولةٌ ثمينة من التمر والملح، وقد مضى على ماء آخر بئرٍ ثلاثة أيام.

قال أحدهم بصوتٍ خشن: «يا عبد الصبور، أين الطريق؟»

أغمض الدليل عينيه، وهدأ نفسه كما تعلّم من أبيه، وقال: «سنقف حتى تنقشع الغيمة.»

لكنّ الغيمة لم تنقشع تلك الليلة، ولا التالية. وفي صباح اليوم الثالث، حين كانت قِرَب الماء شبه فارغة، جلس عبد الصبور وحيداً على كثيبٍ بعيد عن المخيّم، ووضع رأسه بين كفّيه. لم يكن يبكي. كان يعتذر، بصمت، لنجومٍ تخلّت عنه.

في تلك الأيام تغيّر المخيّم. بدأ الرجال يتشاجرون على أقداح الماء، وأخذ أصغرهم، وكان فتىً في الخامسة عشرة اسمه حسن، يبكي في الليل دون صوت. وكان عبد الصبور يسمع كلّ ذلك، ويعرف أنّ الخوف في الصحراء أخطر من العطش، لأنه يفسد القلوب قبل الأجساد. حاول أن يحكي لهم قصصاً قديمة عن القوافل التي نجت، لكنّ صوته خرج واهناً، وأحسّ أنهم يعرفون أنه يكذب على نفسه.

وبينما هو جالس، شعر بيدٍ صغيرة تلمس كتفه. التفت، فرأى فتاةً في العاشرة، حافية، تلبس ثوباً من الكتّان الأبيض كأنه لم يُصنع من

قماشٍ بل من ضوء القمر. قال: «من أين أتيتِ؟ لا قبيلة هنا ولا قافلة.»

قالت ببساطة: «أنا من هنا. أنا ابنة الرمل.» وجلست إلى جواره وقالت: «النجوم لم تتخلّ عنك. أنت فقط توقّفتَ عن الإصغاء.»

كان الهواء حولهما ساكناً على غير العادة، والرمل صامتاً كمن يصغي. شعر عبد الصبور أنّ هذه الطفلة تعرف عنه أكثر مما يعرف هو عن نفسه. فسألها بتردّد: «ولماذا أنا؟ ألم يضلّ قبلي أدلاء كثيرون؟» أجابت: «لأنّك الوحيد الذي سألني. الآخرون كانوا يصرخون في السماء.»

«الإصغاء إلى ماذا؟»

«إلى ما تقوله لك لا إلى ما تريد أنت أن تراه.» ثم أخذت حفنة رملٍ ناعم ونثرتها أمامه، فتشكّلت على الكثيب المسطّح نقاطٌ لامعةٌ ضئيلة، تماماً كما تتشكّل الكواكب في الليل. «انظر، هذه هي الدرب. النجوم ليست في السماء فقط يا عمّ. هي أيضاً في الرمل، في

الريح، في صمت الليل بين دقّتين من قلبك. لكنّك كنت تبحث عن الطريق في الأعلى، وتنسى أنّ الطريق في داخلك.»

نظر عبد الصبور إلى النقاط اللامعة. كانت ترتسم أمام عينيه كأنها خريطة: حلقاتٌ صغيرة، وخطوط. وفي آخرها نقطةٌ كبيرة ذهبية تنبض ببطء.

«هذه واحة؟»

«هذه الدرب إلى ما تحتاجه. ستعرفه حين تصل.»

وقف عبد الصبور. شعر أنّ شيئاً في صدره قد تغيّر: كان خوفه يتبدّل خفّةً كريش. شكر الفتاة، لكنّها كانت قد اختفت، ولم يبقَ من أثرها إلا قطعة قماشٍ بيضاء على الرمل.

عاد إلى القافلة وقال بصوتٍ هادئٍ يثير الثقة: «اتبعوني.» لم يسأله أحد. مشى في مقدّمة الجمال، ولم يرفع رأسه إلى السماء، بل سار وعيناه شبه مغمضتين، يُصغي إلى الريح التي تتبدّل، وإلى رائحة الرمل حين يقترب منه ماء، وإلى حفيفٍ بعيد يبدو كنبض. كان

يجد النقاط اللامعة على الأرض، تظهر له واحدةً بعد الأخرى كما تظهر الحروف على صفحةٍ بيضاء.

في الفجر، رأوا من بعيد خضرةً صغيرة: نخلتين ونبعاً. لكن ما أدهشهم لم يكن الماء. كانت حول النبع عائلةٌ تعيش هناك، أمٌّ وثلاثة أطفال، كأنها بلا زمنٍ ولا عنوان. نزلت القافلة، وأعطتهم العائلة ماءً وتمراً وحليب نوق. وقالت الأمّ لعبد الصبور بابتسامةٍ غامضة: «كنّا نعلم أنّك آتٍ. ابنتي رأتك في حلمها.»

جلس الجمّالون حول النار يتناولون التمر، وكان حسن، الفتى الباكي، أوّل من ضحك. نظر عبد الصبور إليه وهو يلعب مع أطفال العائلة بالرمل، يرسم لهم نجوماً بإصبعه، فرأى ما يتمنّاه كلّ دليل: أنّ من يتعلّم منه سيكمل الطريق بعده.

نظر حوله فرأى طفلةً في الثانية عشرة، تشبه الفتاة التي قابلها، لكنّها أكبر قليلاً. نظرت إليه وغمزت.

بعد ثلاثة أيامٍ من الراحة، انقشع الغيم، وعادت النجوم إلى السماء كأنها لم تغب. أخذت القافلة طريقها إلى سيوة، ووصلت سالمةً

بكامل حمولتها. وعندما سأله التجار كيف نجا بهم، قال: «بمعونة من لا أعرف اسمه.»

ظلّ عبد الصبور يعمل دليلاً عشر سنواتٍ أخرى. لكنّه تغيّر. لم يعد يقول للناس «انظروا إلى فوق». صار يقول: «انظروا إلى فوق، ثم أغمضوا أعينكم، وأصغوا. فالطريق الأوضح هو الذي يُسمع قبل أن يُرى.» وكان يعلّم الصغار في كلّ قافلةٍ أن يرسموا بالرمل خريطتهم الصغيرة، ويقول: «كلّ واحدٍ منا له نجمٌ في الأرض، يُضيء حين يضيع.»

وفي إحدى القوافل الأخيرة، حين كان حسن قد صار رجلاً يتقدّم الصفوف، سأله أحدهم: «من علّمك قراءة الرمل؟» نظر الشاب إلى الأفق، وابتسم وقال: «فتاةٌ بثوبٍ أبيض، لم أرها قط. لكنّ عمّي عبد الصبور حدّثني عنها، وأنا أصدّقه.» ثم رسم على الرمل نقطةً ذهبية صغيرة، وانتظر، فإذا بها تلمع.

وقيل بعد موته إنّه كان في عيني كلّ جملٍ مرّ به لمعةٌ غريبة. وإنّ الرمل في تلك الصحراء حين تهبّ الريح لا يتبعثر عشوائياً، بل

يرسم أحياناً خطوطاً دقيقة، يمكن لمن يعرف قراءتها أن يجد منها طريقاً إلى ماءٍ بعيد.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app